Transformation of Character and Place in the Modern Iraqi Story (The Corpse Exhibition) by Hassan Blasim as a Model

Prof. Dr. Ahmed Heyal Jihad
E-mail: Ahmedheyal70@gmail.com

Assit Lecturer. Aqeel Jassim Al-Khafaji
E-mail: Aqeelalal7010@gmail.com
Dhi Qar University / College of Education for Humanities

Abstract:

This research aims to shed light on the transformations of place in the stories of Hassan Balasim (The Exhibition of Corpses) and to know its correlation with the character, both negatively and positively. The research revealed spatial diversity on the physical and psychological level through its influence on the characters and being influenced by them. It also dealt with the character and began to explore the duality lurking beneath the ideal appearances. , and hidden behind the veil of virtue. The research has found that a personality transforms into a second personality once it is given the appropriate conditions and climate that contribute to its birth. The characters in this group share that there is a common denominator between them, which is the hidden negativity beneath each personality.

Key words: character transformation, place change, short story.

تحوّل الشخصيّة والمكان في القصّة العراقيّة الحديثة
(معرض الجثث) لحسن بلاسم أنموذجًا

أ.د. أحمد حيال جهاد **م. م عقيل جاسم الخفاجي**
جامعة ذي قار/ كليّة التّربيّة للعلوم الإنسانية
E-mail : Aqeelalal7010@gmail.com E-mail: Ahmedheyal70@gmail.com

الملخص:

يروم هذا البحث تسليط الضوء على تحولات المكان في قصص حسن بلاسم (معرض الجثث) ومعرفة تواشجه بالشخصية سلبًا وإيجابيًا، وقد كشف البحث عن التنوع المكاني على المستوى الفيزيائي والسيكولوجي من خلال تأثيره بالشخصيات وتأثره بها، كما تناول الشخصية وراح ينقّب عن الازدواجية القابعة تحت المظاهر المثلى، والمتوارية خلف ستار الفضيلة، وقد توصّل البحث إلى تحوّل الشّخصية إلى شخصية ثانيّة ما إن تتاح لها الظروف المناسبة والمناخ الذي يسهم بولادتها، وتشترك الشخصيات في هذه المجموعة بأن هناك قاسم مشترك بينها وهو السلبية الموّاربة تحت كلّ شخصية.

الكلمات المفتاحية: تحّول المكان، تحوّل الشخصية، القصة القصيرة.

تحوّل المكان:

يمثّل المكان الحيز الذي تدور عليه الأحداث والمشهد الذي تتفاعل فيه الشخصيات سلبًا وإيجابًا، وعليه يعد أهم المكونات التي تتألف منها بنية الخطاب الروائي، بوصفه حيزًا مفترضًا سواء كان متخيلًا أو واقعيًا، حيث أنه يتيح لعنصر القص ومكوناته الأخرى أن تتجلّى في فضاءات السرد بأشكال متعددة؛ لأنه يستحيل تصوّر حدوث وقائع قصصية دونما إطار مكاني تسير فيه أحداثها التي يحتويها في الواقع ويتفاعل معها في الحقيقة. ويمثل المكان البعد المادي الماثل للعيان وللإدراك، وهو العنصر الفعّال الذي يتجسّد عليه وقوع الأحداث، أو وقائع العمل السردي[١].

وقد أولت الدراسات النّقدية المكان عناية فائقة وقدرًا واضحًا لما له من أهمية في تشكيل عوالم السرد وتشابك الأحداث، فضلًا عن كونه يؤثر ويتأثر بالذات الفاعلة التي تتمظهر فيه بفعلها وحركتها ونشاطها وتنصهر معه حتّى يشكّل كل منها الآخر، ويضم الأحداث التي تقوم بها الذات/ الشخصية لتحرك عالم النص[٢]، فعلاقة الإنسان بالمكان هي علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فاعليته في المكان ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل، ونشاط الإنسان لا يكتسب أي معنى إلا من خلال التعالق المكاني[٣]، وقد تعددت الرؤى وتنوعت وجهات النظر حول ماهية المكان بحسب المنطلقات الفكرية والمرجعيات الثقافية التي ينطلق منها أصحابها في تحديد مفهوم المكان. فهو في الفلسفة اليونانية يعني (المحل المحدد الذي يشغله الجسم، ونقول مكان فسيح أو مكان ضيق)[٤]، وعند المحدثين (وسط مثالي غير متداخل الأجزاء، حاو للأجسام المستقرة فيه)[٥] وعليه يكون المكان هو الحاضنة أو الوعاء الذي تتفاعل من خلال الشخصيات وتقوم عليه الأحداث.

يؤثر المكان في البشر بالقدر نفسه الذي يؤثرون فيه، وهو ليس فضاء سلبيًا خارجيًا تقع فيه الأحداث، ولكنّه كيان مادي يحمل وعي الشخصية الداخلي، المكان الأليف هو الفضاء الذي تأنس به النفس وتركن إليه حتى يتجذر بها ويغدو جزء لا يتجزأ من كيانها، وعليه كل مكان عشنا فيه وأمدنا بالدف والطمأنينة والحماية يصبح مادة لذكرياتنا[٦]، وتعيدنا إليه النوستالجيا في حال الاغتراب والرحيل سواء على المستوى الإنساني أو المكاني، فكلاهما معرض للتهدم والعفا، وإذا تعرض المكان إلى اليباب أو ظعنت عنه الذات بفعل قانون الزمنية تبدأ مظاهر الشوق والحنين وعوالم الحزن والألم تعكر صفو الحياة الإنسانية.

إنّ المكان بوصفه كيانًا ماديًا لا يمكن أن يكون أليفًا أو معاديًا للإنسان من تلقاء نفسه، ولكنه يكتسب تلك الصفات بفعل الأحداث التي تتجسّد عليه والوقائع التي تلقي بظلالها على كيانه، إذ إنّ علاقة الإنسان غير ثابتة وتتأرجح بين التنافر والتجاذب، فالشخصية في لحظات السعادة تتوحد مع المكان عبر حلولها به

وفي لحظات البؤس تنفر منه[٧]، وقد أكد باشلار في دراسة المكان على الحالة النفسية والشعورية، وحاول تحديد البواعث التي تدفع بالشخصية للالتصاق بكان ما والنفور من غيره[٨]، وترتبط نفسيه الإنسان وشعوره بالأحداث والوقائع، فإذا ما كانت الأحداث مأساوية ستنعكس سلبيتها على المكان فيصبح منفرًا وطاردًا للذات الإنسانية، أما إذا كانت الأحداث إيجابية فستعمل على تجذير المكان في الذات وارتباطه بها من خلال اندغام أحدهما بالآخر، وحينها يغدو الشرخ بينمها أمرًا مستبعدًا ألا بفعل قانون الزمنية وسلطتها التي تمثّل قوة تدميرية عبر إحداث الفجوة ونقض التواشج العلائقي بين الإنسان والمكان.

تحوّل الشّخصيّة:

لا تقلّ الشّخصيات أهميّة عن المكان في تكوين عناصر السرد إن لم تكن أهم منه؛ فهي مصدر الأفعال والأحداث والانفعالات، وبها يتمّ تجسيد رؤية القاص والتعبير عن مكوناته، ومن هنا تأتي أهميتها بوصفها تفوق أهمية العناصر السردية الأخرى لما لها من وظائف كثيرة منها البوح عن رؤى الكاتب، إذ عن طريقها يتمكن الكاتب من بث أفكاره ونقلها للمتلقين، فضلًا عن ذلك فهي التي تبعث الحركة في العمل السردي، فلا تصاعد للأحداث بمنأئ عن الشخصيات[٩]. ويمكن تعريف الشخصية بأنّها (جملة من الصفات الجسدية والنفسية موروثة او مكتسبة والعادات والتقاليد والقيم والعواطف، متفاعلة كما يراها الآخرون من خلال التعامل على مع الآخرين)[١٠]، ويعرفها البورت بوصفها (ذلك التنظيم الديناميكي لدى كلّ فرد لتلك النظم النفسية والجسمية التي تحدد سلوكه وفكره المميزين)[١١]. وتمثل الشخصية في القصة محور المعاني الإنسانية ومركز الأفكار والمعاني العامة، ولهذه الافكار والمعاني المكانة الأولى في القصة منذ انصرفت منفصلة غلى دراسة الإنسان وقضاياه، إذ لا يسوق القاص أفكاره وقضاياه العامة منفصلة عن محيطها الحيوي بل هي ممثلة في الأشخاص الذين يعيشون في مجتمع ما)[١٢]. إنّ الشخصية السردية ليست خيالية بل هي انعكاس للواقع وتداعياته، ولهذا فهي خاضعة للظروف والمتغيرات التي تطرأ عليها مما يجعله قابلة للتحوّل والتبدّل. وبعد هذه المقدمة سنولّي وجوهنا شطر متوالية حسن بلاسم السردية بحثًا عن تحوّلات المكان والشخصية، والكشف عن تعالقهما سلبًا وإيجابًا.

معرض الجثث وتحوّلات الشخصية والمكان

لقد نظر القاص حسن بلاسم إلى الكون والوجود والإنسان نظرة خاصّة تختلف عن الآخرين، فهو يحمل نزعة شاكّة وشمولية شخّصت عيوب المجتمع العراقي وكشفت زيّفه وامتدت إلى الواقع السياسي أيام الطائفية وأعلنت عما تقوم به الجماعات الإرهابية من مؤامرات تهدف إلى زرع الفرقة بين ألوان الطيف العراقي ودسائس تعمل على انفراط عقده وخرق روح التآلف وقد استظهرت قصص حسن بلاسم قباحة النموذج الإنساني وفضحت أفكاره الشيطانية، وبشاعة تفكيره، لقد استعان القاص بموهبته الفذة واستثمر

أحداث العراق في تلك الفترة بطريقة كافكوية تارة وسردية ماركيز تارة أخرى من خلال تصوير الواقع العراقي المعتّم وما يدور في قاعه من أحداث قتل واختطاف وممارسات تخلع فيها الذات لباس الإنسانية وتتسربل زي الحيوانية، وكلّ ذلك جاء بلغة مكشوفة فجّة تمجّها الأطباع وتنبذها الأسماع وتهتك حجاب الحياء، وهذا الفعل لا يمثّل قدحًا ومثلبة على القاص بل هو مزية تُسجّل له؛ لأنّ بشاعة الحقائق التي تنساب في ثنيات القصص تستدعي مثل هذه اللّغة السوقيّة. وقد انعكست مظاهر القبح على المكان فبات مرعبًا في أكثر قصص المجموعة، إذ إنّ المكان هو الفضاء أو الحيز التي تتجلّى فيه ممارسات الشخوص الإنسانية فيتلّون بناءً على تلك الأفعال والممارسات، وبما أن القاص قد اهتّم اهتمامًا لافتًا بتسليط عصاه السردية على حياة الإنسان العراقي وغيره فانبجست منها تلك السلبية وقتامة الصورة، ويتراءى لنا ذلك في قصة (جريدة عسكرية) التي تتحدث عن موظف يعمل في الجريدة مشرفًا على الصفحة الثقافية التي تهتم بقصص الحرب وقصائدها. وقد أماط القاص اللّثام في هذه القصة عن تعالقات الذات الإنسانية بالمكان الذي بدا أليفًا تستشعر فيه الذات وجودها وتجذّر كيانها ثمّ تحوّل ذلك الشعور إلى خوفٍ وهلعٍ يقضّ مضاجعها نتيجة النفس الإمارة بحبّ الشهرة وذيوع الصيت على حساب الآخر، مما انعكس الأمر سلبًا عليها وبات المكان طاردًا لوجودها، فقد غدا متغيرًا والذات ثابتًا. تكمن ألفة المكان بقول الروائي/ الشخصية التي تسرد أحداثها (كنت أحصل من عملي في الجريدة على العديد من المكافئات والهدايا، والتي كانت قيمتها تفوق راتبي الشهري، وبشهادة رئيس تحرير الجريدة، أكون أنا العبقري الوحيد الذي تمكن من إحياء الصفحة الثقافية...حتى أنني حصلت على تكريم ورعاية خاصة من وزير الثقافة نفسه، ووعدني سرًا بالتخلص من رئيس التحرير وتعييني مكانه، لم أكن عبقريًا إلى هذا الحد ولا حتى وغدًا... كنت رجلًا مثابرًا وطموحًا، احلم بالوصول إلى منصب وزير الثقافة لا أكثر، لهذا كنت منكبًا على عملي بشرف، وكان جبيني يتصبب وأنا أراجع وأدقق وأصمم صفحتي)[١٣] تتجلّى في هذا النصّ علاقة الذات بالمكان التي تشوبها الحميمية وتترشح منها مظاهر الطمأنينة والتآلف بفعل السلوكيات الإنسانية الإيجابية التي تتعامل بها الذات مع الآخر. وبوصف المكان هو الحيز أو الوعاء الحاضن لممارسات الذات وأفعالها فلا شك في أنّه يكون صدى لهذه الأفعال سلبًا وإيجابًا، وما دامت الذات لم تخرق التسنين الإنساني وتسير على المحجّة البيضاء يظلّ المكان يرفل بعوالم الهدوء والسكينة وتخيّم عليه مظاهر الألفة، وما إن تتغير تلك السلوكيات يبدأ الشرخ يدبّ في جسد العلاقة وينسفها ليتحوّل المكان من كونه ملاذًا يحتوي الذات ويحنو عليها إلى فضاءً طاردًا ومنفرًا يبعث في نفسها الخوف ويثير الرعب وقد تضطر إلى تفعيل سياسة الرحيل بغية الخروج من دائرة السلب ومغبة القلق والبحث عن مكان آخر يستسيغ وجودها، هذا ما نجده على لسان الشخصية وهي تسرد الحدث الذي شكّل منعطفًا في حياتها (لكن المنعطف في الحكاية يا سيدي القاضي حين وصلت إلى الجريدة خمس روايات، من جندي يقول إنه كتبها خلال شهر واحد...

الروايات كانت مكتوبة بلغة فنية عالية مدهشة، بل أجزم أن الرواية في العالم قبل هذه الروايات التي قرأت هي مجرد هلوسات وقزمية أمام عظمة ما كتبه هذا الجندي، لم تكن الروايات تتحدث عن الحرب فقط أبطالها كانوا جنودًا مسالمين. كانت غوصًا شفافًا وقاسيًا حول الكائنات الجنسية... عن جنود يصنعون من أفخاذ العاهرات أقواسًا رخامية...جنود يصفون السماء في جمل قصيرة شبقة وهم يلقون برؤوسهم على صدور نساء لدنات)[١٤] لعلّ القصدية التي يحملها هذا النص هي محاولة تسليط الضوء على سذاجة العقل الإنساني والتفكير الشهواني الذي يقود الشخصية فتتبعه مطواعة وخاضعة، وقد تكون موضوعة الجنس من البواعث التي أدّت بصاحب الجريدة إلى تعظيم هذه الروايات ووصفها بالفنية العالية والإشادة بسحرها الذي جعل روايات العالم تشعر بالتقزم أمامها من خلال انطواء تلك الروايات على أحداث جنسية تفوح منها رائحة الرغبة الشبقية، وعليه نجد القاص يحاول لفت انتباه المتلقي إلى مدى تمكّن قضية الجنس في الذات الإنسانية ويعكس قباحة التفكير وضيق الأفق وانحسار مدياته، فضلًا عن ذلك فقد أعلن القاص عن جهل الذات التي تسير إلى حتفها ظنًّا منها سائرة إلى معانقة المجد والشهرة حتى وإن كانت هذه الشهرة على حساب الآخر وسرقة جهوده، فقد لمعت في رأس صاحب المجلة فكرة مصادرة جهود الجندي ونسبتها إليه عن طريق ابتزازه بأن الروايات انحرفت عن نهج الحزب وقد عوّل على الخوف الأثير من مغبة ذلك الانحراف ليتنازل الجندي عن الروايات ويطلب منه إتلافها، وقبل أن يشرع في تنفيذ خطته أغدقت عليه السماء هباتها لتصل له برقية من الجبهة تخبره بأن صاحب الروايات تعرض لهجوم فيلقه ولم يبقَ منهم أحد (لم تكن السماء بعيدة؛ لقد وقفت إلى جانبي...تلقيت بعد أسبوع من رسالتي إلى الجندي، برقية من فيلقه العسكري تقول إن الجندي قتل...بعد خمسة شهور من نشر الرواية الأولى باسمي...كنت أجوب بلدان العالم من أجل تقديم روايتي الجديدة في حلقات دراسية...كانت أبواب السعادة قد فتحت لي...إلى أن وصلت ذات يوم على عنواني في الوزارة ثلاثة طرود كبيرة من الجبهة كانت تحتوي على عشرين رواية من نفس الجندي...شعرت للوهلة الأولى بإرباك هائل، ثم تحول الإرباك إلى فزع جليدي)[١٥] نجد في النص نوعين من التحوّل: المكاني الذي صار باعثًا على الخوف والهلع، والثاني الإنساني الذي يتجلّى ببشائر عوالم القلق ونسائم الخوف التي بدت تداعب نفس صاحب الجريدة، وبعد أن تتوالى عليه طرود الروايات وكلها تشير إلى ذلك الجندي المجهول، يضطر إلى مغادرة الوزارة والعيش في أرض زراعية بحثًا عن الأمان المفقود، وهنا تتحوّل تلك الروايات من مدعاة إلى فرح وسعادة إلى لعنة تقلب كيانه وتفسد حياته حتّى تدفعه إلى حرق الروايات وحرق نفسه خلاصًا من عوالم الفزع التي أحكمت قبضتها عليه.

وفي قصة (الأرشيف والواقع) يمخر القاص عباب المجتمع العراقي بطريقة لاذعة ويشرّح جسده بمشرطه السردي الذي يشبه مشرط الطبيب؛ ليأخذ القارئ إلى أجواء مظلمة تفوح منها رائحة الأجساد الميتة، ودهاليز معتّمة تغطيها الدماء وتطغى عليها مؤامرات القتل وصفقات الاختطاف التي اتخذت من

الجسد العراقي وسيلة لتنفيذ مخططاتها الشيطانية وضرب مكونات المجتمع. تتحدث القصة عن سائق إسعاف كان معجبًا بفلسفة أستاذه عن الموت والحياة، وتسوق الأقدار ذلك السائق ليقع ضحية بيد مجموعة إرهابية تتخذه آلية لبث سمومها في الجسد العراقي وشل حركة الحياة فيه.

تبدأ الشخصية متزنة ومخلصة في عملها قبل لعنة النداء الذي أخبرهم بوجود جثث مقطوعة الرؤوس وعليهم التوجّه حالًا لنقلها. كان السائق يقضي وقته بين نقل الجثث والاستماع إلى حديث أستاذه من ذلك قوله (أني كنت أكنّ له الكثير من الاحترام والمحبة بسبب حديثه الجميل والشيّق. وقال لي مرة: إنّ الدم المسفوك والخرافة هما أصل العالم. أما الإنسان فهو ليس الكائن الوحيد الذي يقتل من اجل الخبز أو الحب أو السلطة، فالحيوانات في الغابة تفعل ذلك... ولكنه الوحيد الذي يقتل بسبب الإيمان)[١٦] تتبدى في هذا النص علامات ألفة المكان التي تترشح من خلال الاقتداء بشخصية الاستاذ والتماهي في عوالمه الفلسفية التي يتشدق بها أمام سائقي الإسعاف، فضلًا عن ذلك فالنص يبوح بدلالة أخرى ألا وهي أن الثبات المكاني على المستوى الواقعي أفضى إلى ثبات نفسي، فليس ثمّة ما يلوح في الأفق ليعكر صفو الحياة، إلا أن المكان سيتحوّل ويسهم في تحولّ الشخصية بفعل ما تواجهه من تعنيف وضرب.

يأخذنا القاص في متن حكائي باذخ السواد والقتامة التي تتجلّى بتلك الليلة المشؤمة التي وقع فيها سائق الإسعاف بيد الجماعات المسلّحة التي أخذت تستعمله بيدقًا لتنفيذ مخططاتها الإجرامية لغرس الفرقة بين مكونات النسيج العراقي. في هذه القصة يتوارى القاص تحت الشخصية ويفسح لها المجال لسرد الأحداث التي تمر بها، وهذا ما عبّرت عنه الشخصية بقولتها (لقد اختطفتُ وهم سيقطعون رأسي ... كان هذا أول ما فكرت به حين كبلوني وحشروني في صندوق السيارة...فكّوا الرباط عن عيني ووجدت نفسي داخل غرفة باردة وخالية من الأثاث. ثم انهال عليّ بالضرب المبرح ثلاثة أشخاص مجانين، وبعدها ساد الظلام من جديد)[١٧] يكشف هذا النص عن تبدل مكاني مصحوبًا بتغيّر نفسي جرّاء وقوع سائق التكسي ضحية بين الجماعات المسلحة التي وجدت ضالتها بهذا الشخص لتملي عليه قوانينها وتتخذه آلة لتمرير سياستها الخبيثة التي تتجسّد على لسان الشخصية التي تروي ما جرى بينها وبين تلك الجماعات وماذا طلبوا منها لإخلاء سبيلها (أخرج الأعور من جيبه ورقة صغيرة... كان مكتوبًا في الورقة بأنني ضابط في الجيش العراقي وأن هذه الرؤوس لضباط آخرين، وكنت قد قمت برفقة زملائي الضباط بمداهمة البيوت واغتصاب النساء وتعذيب المواطنين الأبرياء، وكنا نتلقى الأوامر بالقتل من ضابط كبير بالجيش الأمريكي)[١٨]، يكشف النص عن قصدية القاص التي تحاول فضح الفكر التكفيري في تلك الحقبة وبيان الكيفية التي يتعاملون بها من أجل توطيد نفوذهم معتمدين على إيهام الناس وتخويفهم؛ ليتسنى لهم تحقيق أهدافهم الشيطانية.

ويكمل القاص المتن الحكائي متواريًا تحت الشخصية وتاركًا لها المجال لتبوح بمكنوناتها وتجاربها المؤلمة التي عاشتها تحت وطأة الاختطاف والتعذيب، ويأتي هذا البوح أمام موظف الهجرة بعد أن تعاون- أعني سائق الإسعاف- مع المجموعات الإرهابية تحت السلاح ونفّذ مخططاتهم ليطلقوا سراحه (أنا أطلب اللجوء في بلدكم. بسبب الجميع. كلهم قتلة ومتآمرون: زوجتي وأولادي وجيراني، وزملائي، والله، ونبيه، والحكومة، والصحف، وحتى الأستاذ الذي كنت أعتبره ملاكًا، وعندي شكوك بأن مصور الجماعات الإرهابية كان الأستاذ بعينه)[١٩] تتجلّى في هذا النص الذات الساخطة على الوجود بأسره لدرجة الإلحاد، فبعد أن كانت مثالًا للتديّن والالتزام باتت ترفض كلّ الحقائق بما فيها حقيقة الوجود، وهذا يدلّل على أن القاص أراد إماطة اللثام عن الشخصية الثانوية المتوارية تحت عباءة الدين والخُلق، تلك الشخصية التي تطلّ برأسها وتكشف عن نفسها ما إن تُتاح لها الظروف ملائمة والمناخات التي تعجّل من ظهورها.

وفي قصة (شاحنة برلين) يرحل بنا القاص في رحلة سردية باذخة الجمال من خلال تقنية المتن الحكائي وغياب الصوت السردي لتحضر الرؤية الشخصية التي تتحدث بصوتها لا بصوت القاص، الأمر الذي جعل المتوالية السردية تقدّم قباحة العالم الإنساني دون رتوش، إذ تبقى الشخصية تمثل القناع الذي يختبئ خلفه القاص ومن خلاله يعكس الواقع المعاش وينتقده[٢٠]. تتحدث القصة على لسان السارد علي الافغاني عن خمسة وثلاثين شابًا اتفقوا مع مهرب تركي يُشهد بنزاهته وتدينه لنقلهم من تركيا إلى برلين في شاحنة تسير ليلًا وتتوقف نهارًا من أجل السرية التامّة (الليلة الاولى كانت ناجحة. في صباح توقفت الشاحنة في مرآب قرية حدودية...تنفس الزبائن وتجدد الأمل في صدورهم، كان المرآب عبارة عن زريبة سابقة. وأشرف على عملية التغوط شابان)[٢١]. يكشف هذا النص عن سلطة المكان الإيجابية التي تظهر بانبعاث نسائم الحرية وتدفق الأمل الذي بدأ يتسلل إلى نفوسهم رغم الرحلة المضنية وقباحة المكان على المستوى الواقعي، فهو عبارة عن (زريبة) معزولة ومتوارية عن الأنظار، ولكنه في ظل تلك الظروف العصيبة وفرارهم من التهميش وطمس الهوية التي عانوا منها في بلدهم، والتي دفعتهم إلى هذا سبيل وعر المسلك يغدو المكان أليفًا وتتجسّد فيه علامات الرضا والتوق العارم إلى بلوغ الغاية التي ينشدونها. وإذا كان المكان يمثّل في هذا النص وعاءً لمظاهر الفرح والسرور، فهو نفسه سيكون مسرحًا لنهايتهم المأساوية، وحينها يكون المكان قد انزاح عن ألفته وتحوّل إلى مكان معادي ينذر بتلاشي الحياة وانعدامها، والسبب في ذلك الثبات والتحوّل هو الشعور النفسي الذي ينعكس على المكان. وبعد ترحال الشاحنة بين السير ليلًا والتوقف نهارًا تأتي اللحظة التي يسردها القاص بقوله (وفجأة أطفأ السائق محرك السيارة وعم صمت مريب وغامض، داخل شاحنة برلين صمت شيطاني سيفرخ معجزة وحكاية لا تصدق... نهار اليوم التالي كانت هناك فوضى عارمة... أنا لا أكتب الآن عن تلك الأصوات والروائح... بل عن تلك الصرخة المدوية الوحشية التي دوت بغتة في الفوضى. بدت كأنها قوى مجهولة جعلت من صخب الشاحنة

وفوضاها طبقة قاسية من الجليد... كانت صرخة خارجة من كهوف لم تفك أسرارها... أخذت الشاحنة تهتز بعنف وهي في مكانها. تعالى الصراخ والرعب من جديد... بدأ الأمر كأن قسوة الإنسان والحيوان ووحوش الحكايات الخرافية قد تكثفت، وأخذت تعزف لحنًا جحيميًا مشتركًا)[٢٢] يكشف هذا النص عن تحوّل المكان وغياب الألفة التي تبدت في أول القصة حين انطلقت الشاحنة في اليوم الأول، ولكن الآن تبخرت معالم الهدوء وتختفي نسائم الحرية لتحضر عوالم اليأس واقتراب النهاية التي كانت تنتظر الشبان من الوهلة الأولى التي فكروا بها بالهروب عن طريق الشاحنة. ولعلّ القصدية التي يبوح القاص بها هي هروب المهربين وتركهم الشباب يواجهون مصيرهم داخل شاحنة مغلقة وفي قرية نائية تحيط بها الغابات من كلّ الجهات، وقد أضفى على المتن الحكائي لمسة غرائبية تتجسّد بذلك الصوت المفزع الذي جعل الشاحنة ترتعش كغصنٍ في يوم عاصف، لتكتمل بذلك سوداوية المشهد وبشاعة النهاية التي تنتظر أولئك الشبان (عثرت الشرطة الصربية بعد أربعة أيام على الشاحنة عند أطراف مدينة حدودية صغيرة تحيط بها الغابات من كل الجهات... حين فتح رجال الشرطة الباب الخلفي للشاحنة، نط شاب ملطخ بالدماء من داخل الشاحنة، وركض كالمجنون صوب الغابة... في الشاحنة كانت هناك أربعة وثلاثون جثة، لم تمزقها السكاكين... بل كانت أجسادًا عملت بها مخالب ومناقير نسور، وأنياب تماسيح... كانت الشاحنة مليئة بـ... والبول والدم والأكباد الممزقة... تمامًا كما لو أن ذئابًا جائعة كانت هناك، تحّول أربعة وثلاثون شابًا إلى عجينة كبيرة من اللحم والدم والخراء)[٢٣]، لعلّ الرسالة التي أراد القاص بثّها إلى المتلقي هي حقيقة الجنس البشري الذي قد يفتك بأبناء جنسه في حال توفرت الظروف المناسبة التي تخلق منه حيوانًا مرعبًا يفعل كل شيء من أجل البقاء والتشبث بالحياة حسب قانون الغابة. لقد استعان القاص في النص برافد الواقعية السحرية التي تتجلّى بتحوّل الإنسان إلى حيوان من أجل إضفاء لمسة غرائبية تنسجم مع فداحة المنظر وتزيد من بشاعة المشهد ليجعل القارئ يقف متسمرًا ومصعوقًا من هول المصير المرعب الذي يمكن أن يتعرض له كلّ واحد منا إذا ما سلك الطريق نفسه، وتكمن غرائبية الحدث بالمسخ الإنساني الذي لجأ إليه القاص معتمدًا على السرد الكافكوي الذي يتجسّد بتحوّل الشاب إلى ذئب رمادي راح يفترس من كانوا معه في الشاحنة ليتركهم عبارة عن تل من اللحم والدم، وما يدعم رؤيتنا حول فتك الشاب بأبناء جنسه الذين كانوا معه في رحلة الهروب هو حديث الشرطي يانكوفيتش مع زوجته (لست مجنونًا يا امرأة... أقول لك للمرة الالف... ما إن دخل الشاب إلى الغابة حتّى أخذ يعدو على أربع، ثم تحوّل إلى ذئب رمادي قبل أن يختفي فيها...)[٢٤].

لقد حاكى القاص تعسفات الحياة وأدران المجتمعات بطريقةٍ خاصة واضعًا مشرطه على الجسد الإنساني برمته؛ لأن ما حدث للشبان ليس مقصورًا على مكان معين أو مجتمع محدد، بل قد يشمل كل

إنسان تسوّل له نفسه ويدفعه جهله لركوب الأخطار ظنًّا منه أن ذلك هو السبيل الوحيد للخلاص من الواقع المأزوم والخروج من عوالم التيه والضياع الإنساني.

وفي قصة (العذراء والجندي) عمد القاص إلى تقنية المبنى الحكائي تاركًا النهاية غامضة ليفسح المجال أمام المتلقي لنسج خيوطها والتكهن بمصير بطلها بناءً على معطيات الأحداث. تتحدث القصة عن علاقة حبّ عفيف بين جندي يدعى حميد السيد وفاتن الفتاة الخياطة التي تعمل في معمل الكرامة لخياطة البدلات العسكرية (إنها حركة صغيرة وجميلة لكنها حذرة جدًا: فاتن تغمز الجندي الذي يمر حاملًا كومة من الأوراق بقلق وراتباك)[٢٥] تتجلّى ألفة المكان في هذا النص من خلال تبادل نظرات الحب بين الجندي وفاتن مع الحذر الشديد من عيون الرقيب التي تتربص بهم إلى درجة تفوق كاميرات المراقبة. إنّ المكان في هذه القصة ثابتًا على المستوى الواقعي ومتغيرًا على المستوى النفسي، فالمعمل هو مسرح الأحداث الفيزيائي الذي سيكون مسرحًا للأحداث المأساوية التي يسردها القاص على لسان الجندي وهو ماثل أمام المحكمة العسكرية (يقول الجندي حميد السيد في المحكمة العسكرية: إنه سمع خطوات شخص قادم في الممر فاختبأ مع فاتن أسفل كومة البدلات العسكرية...

والآن أخبرني بحق ربك إن كان لديك رب، لِم اغتصبتها؟

اقسم بالله العظيم يا سيدي لم أغتصبها، في اليوم الثالث كنا نموت من العطش، ولقد يئست من محاولة كسر الباب.. قالت لي إن خروجنا من المكان يشبه موتنا هنا داخل هذه الغرفة... في كل الأحوال سنقتل.. ثم طلبت مني ممارسة الجنس)[٢٦] في هذا النص بدأ المكان يتخلى عن ألفته وكونه شاهدًا على قصة حب عفيفة ليتحول إلى مسرح لجريمة بشعة تمثل النهاية الصادمة لذلك الحب الذي كان يجمعهما، ويتضح ذلك من الحوار الذي دار بين الجندي الذي يحاول تبرير فعلته وضابط التحقيق الذي يحاول كشف ملابسات الحادث والبواعث التي أدّت إلى ارتكاب الجريمة، من ذلك قول ضابط التحقيق (لقد عشتَ على دم ولحم إنسان ميت. هل كانت على قيد الحياة حين ارتكبت جريمتك المقززة الثانية؟

أقسم لك يا سيدي لم أكن في وعيي، مرت سبعة أيام على سجننا في الغرفة.. وكانت فاتن تتمدد وسط الغرفة ميتة..

– لكن تقارير الطبيب تقول إنها لم تكن ميتة بعد... حين قطعت أصابعها...

أقسم كانت ميتة... حاولت أشرب قليلا من البول، ولكن ...

– ولكن ماذا؟

– شربت دمها..

– دعني أصدق أنك إنسان من لحم ودم...

– حميد السيد هل قمت بقطع ثلاث أصابع من يد فاتن قاسم؟

– نعم سيدي...
– هل أكلت الأصابع الثلاثة؟
– نعم أكلتها)[٢٧]

يكشف هذا النص عن ثبات المكان على المستوى الواقعي وتحوله نفسيًا بفعل تحول الأحداث من الإيجابية إلى السلبية، فبعد أن كان الحبّ يزّين المكان ويبث الروح فيه وجعله نابضًا بالحياة تحوّل إلى مكان موحش وشاهد على جريمة بشعة. لقد صدم القاص المتلقي بهذه النهاية ليكشف عن الجينات الحيوانية المتوارية في جسد الإنسان وتفكيره، ومختبئة تحت غطاء المظاهر وقناع الإنسانية الزائف، ومنتظرة الفرصة السانحة للظهور، وبهذا يكون الإنسان قد انسلخ من جلد المظاهر لتطغى الشخصية المغايرة.

وفي قصة (الملحن) يطلّ علينا القاص بنموذج آخر من المجتمع العراقي قبل ٢٠٠٣، وهو جبار المطلبي الملحن المشهور بسبب ألحانه التي تتغنّى بالسلطة حتى نال الأوسمة من الرئيس نفسه، مما جعلته ذا منزلة تفوق عضو الفرقة الحزبية، وكان يستغل نفوذه ويتخلّص من كل الذين يختلفون معه. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها تعرض الملحن إلى نضوب إبداعي فلم يعد قادرًا على وضع لحن جديد (لم يتمكّن من وضع لحن جديد للقصائد الكثيرة التي كانت تصله من شعراء مشهورين... كان قد انتهى من وضع عشرة ألحان لقصائد في شتم الله والوجود، كما كانت هناك أغنية جميلة عن الخلفاء الأربعة)[٢٨] يمارس القاص في هذا النص عادته في التخفي والاختباء تحت غطاء الشخصية، أو بالأحرى يغيب تمامًا ويفسح المجال لها للتعبير عن مكنوناتها وتسرد أحداثها بنفسها، وقد جاء السرد في هذا النص على لسان ابن الملحن ليكشف عن التحوّل الذي أصاب والده بعد أن أفلت موهبته الإبداعية ونضبت ألحانه ليصبح شخصية إلحادية لا يلهج لسانها إلا بالكفر والزندقة.

الخاتمة:

- كشف البحث عن التعدد المكاني وتحولاته بين الفيزيائي والنفسي متأثرًا بالأحداث التي احتضنها بوصفه مسرحًا لها.
- توصّل البحث إلى أن شخصيات المجموعة القصصية يجمع بينهما قاسمٌ مشترك، وهو وجود شخصية ثانوية تتوارى تحت غطاء الشخصية الرئيسة في الوقت نفسه.
- كشفت المجموعة القصصية عن جمال من نوع خاص، وهو الجمال الناتج من قباحة الحياة والإنسان.
- دمج القاص بين السرد الواقعي والعجائبي في مجموعته، في محاولة منه لجذب القارئ وهتك حجاب الواقعية التي تطغى على المشهد القصصي.
- إنّ قباحة النفس الإنسانية التي أماط القاص اللثام عنها استدعت منه لغة مختلفة تنسجم معها، ولهذا جاءت لغته مكشوفة ولاذعة ومفرطة في السوقية.
- منح القاص المكان دور البطولة في بعض القصص ومنها (شاحنة برلين) فلم يحضر المكان في هذه القصة بوصفه حاضنًا للأحداث بل منتجًا لها.

الهوامش :

(١) ينظر: تجليات المكان في الخطاب السردي بين البنية والوظيفة الجمالية عند الروائي دان بروان في رواية (شيفرة دافينشي)، دنيا باقل، أيوب جدي، مجلة الحوار الفكري، العدد ٢، ٢٠١٩، ١٣٨

(٢) ينظر: أثر المكان ودلالته في الذات الفاعلة في الشعر العباسي، هادي عبد الحسن لعيبي، مجلة الآداب، العدد، ١١٦، ٢٠١٦، ٣١٨.

(٣) ينظر: المكان في رواية ليالي ألف ليلة لنجيب محفوظ، سروة يونس أحمد، مجلة آداب الرافدين، العدد ٥٩، ٢٠١١، ١-٢.

(٤) المكان في نقائض جرير والفرزدق الطلل انموذجًا، رافعة السراج، مجلة التربية والعلم، المجلد ١٦، العدد ٣، ٢٠٠٩، ١٦٨.

(٥) المعجم الفلسفي ٢، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، د ط، ١٩٨٢، ٤١٢.

(٦) ينظر: ألفه المكان في شعر العصر العباسي الاول (١٣٢-٢٤٧هـ) عبد الخالق جبار سالم، مي عبد الخالق عوض، مجلة آداب الفراهيدي، العدد، ١٩، ٢٠١٤، ١٥٠.

(٧) ينظر: جدلية المكان الشخصية، في روايات عبده خال، ٢٠٤

(٨) المصدر والصفحة نفسهما

(٩) ينظر: طرق تقديم الشخصية الروايات الحائزة الجائزة العالمية للرواية العربية من (٢٠١٨-٢٠٢٠)و هيرش محمد أمين، مجلة قه لاى زانست العملية، المجلد ٧، العدد ١، ٢٠٢٢، ٨٣٠.

(١٠) أنماط الشخصية أسرار وخفايا، كارل البرت، ترجمة، حسين حمزة، دار كنوز للمعرفة العلمية، الأردن، ط١، ٢٠١٤، ١١

(١١)أنماط الشخصية على وفق نظرية الانيكرام والقيم والذكاء الاجتماعي، منتهى مطشر عبد الصاحب، دار صفاء للنشر والتوزيع-عمان، ط١، ٢٠١١، ١٩

(١٢) ينظر: أنماط الشخصية في قصص جمال نوري، خالد جعفر سليم، رسالة ماجستير، ١

(١٣) معرض الجثث، حسن بلاسم، منشورات المتوسط، ط١، ٢٠١٢، ٢٩-٣٠

(١٤) المصدر نفسه، ٣٠-٣١

(١٥) المصدر نفسه، ٣٣

(١٦) معرض الجثث، ١٢

(١٧) معرض الجثث، ١٣- ١٤

(١٨) المصدر نفسه، ١٦

(١٩) المصدر نفسه، ٢٠

(٢٠) ينظر: جدلية المكان الشخصية في رواية عبده خال، هجران جاسم محمد، رياض جباري شهيل، مجلة الجامعة العراقية، العدد ٦١، ج ٣، ٢٠٤

(٢١) معرض الجثث، ٢٢

(٢٢) المصدر نفسه، ٢٥-٢٦

(٢٣) المصدر نفسه، ٢٦-٢٧

(٢٤) المصدر نفسه، ٢٧

(٢٥)المصدر نفسه، ٣٨

(٢٦) معرض الجثث، ٤٤-٤٥

(٢٧) المصدر نفسه، ٤٥-٤٦

(٢٨) المصدر نفسه، ٩٤-٩٥